

اجتهادات العَبَثِيُّونَ اليوم

ما أبعد المسافة بين العبث المتزايد في عالمنا اليوم، وموجةٍ أدبية وفنية وفكرية عبرت عن آلام مُبدعين وشعورهم بانسحاق البشر. تأثروا بويلات الحرب العالمية الثانية، فتغيرت نظرتهم إلى الحياة، أو قل إنهم نظروا إليها فلم يجدوا معنى بعد أهوال القتل والتدمير. تأملوا معاناة ملايين البشر بسبب سياسات وقرارات وجدوها عبثيةً بامتياز، وبحثوا عن معنى لما حدث فلم يجدوا. ويعرف كُثر «مسرحية» صمويل بيكيت الأشهر في تلك الموجة (في انتظار جودو). لم تكن مسرحيةً مكتملة الأركان فنيًا، بمقدار ما كانت تعبيرًا رمزيًا إبداعيًا عن اللامعنى. فلا أحد يعرف من هو جودو هذا، ومتى سيصل، وهل سيصل فعلاً، وما سيفعله إن وصل. انتهى العمل، وتوفى صانعه، ولم يصل جودو بالطبع.

عبثيو اليوم صنفُ آخرَ تمامًا. يشبهون جزئيًا من أشعلوا
الحرب العالمية الثانية، وقبلها حرب كبرى أخرى،
وعاثوا في الأرض فسادًا، على النحو الذي أنتج الموجهة
الأدبية والفنية والفكرية التي عبرت عن عبثهم. لكن
خطر السياسيين العبثيين اليوم بات أخطر بعد التطور
الذي حدث على مدى أكثر من ثمانية عقود، وغيرَ الكثير
من أوجه الحياة على الأرض. يجمعهم جنونٌ يفوقُ
أقصى ما يُمكن أن نجده في مصحات العلاج العقلي في
أنحاء العالم. جنونُ الحرب والسلاح والدمار والاستهانة
بأرواح البشر. لديهم حصانةٌ فائقةٌ ضد الإحساس بالآلام
الآخرين.

وحين يقترنُ العبثُ بالجنون فهو يُحصِنُ أيضًا ضد الفهم
والمعرفة، فتتعدى العودة إلى تاريخ قريب أو أبعد،
واستخلاص درس أو دروس منه. ولهذا لا يدركون أن
أحدًا لم يتمكن من اجتثاث أحدٍ في صراعاتٍ وحروبٍ
طول التاريخ. فلم يُستأصل أى ممن أريد اقتلاعهم من
جذورهم أو القضاء عليهم.

هذا ما يخبرنا به التاريخ المُدَوَّن. استمرت بعض
الحروب لقرونٍ طويلة، مثل حروب الفرس والرومان.
فلا هذا قضى على ذاك، ولا العكس. كسب هذا جولات
وربح ذاك أخرى. وهذا ما تعلمناه أيضًا من القرآن الكريم
(غُلِبَتِ الرُّومُ فِي أَدْنَى الْأَرْضِ وَهُمْ مِنْ بَعْدِ غَلِبِهِمْ
سَيُغْلِبُونَ). وما زال القومان موجودين، وهكذا عبر
التاريخ، إذ لا يقودُ العبثُ الجنونى سوى إلى القتل
والدمار.